المسيح والثورة

ش. د. إيهاب الخراط

استشاري الطب النفسي، مؤسس ومدير برنامج الحرية من الإدمان والآيدز. شيخ الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة، القاهرة. سابقاً عضو منتخب في مجلس الشورى المصري.

طرح علينا الواقع العربي أسئلة لاهوتية صعبة وشديدة الأهمية عبر ثلاث موجات من المد الثوري العارم منذ ٢٠١١ وحتى اليوم. هل هناك واجب للمسيحي تجاه العمل السياسي؟ أليس من الأفضل ألا نتدخل في السياسة أصلاً إلا لنحافظ على عبادتنا وحقوقنا كأقلية؟ هل يصح أن يشترك المسيحي في الثورة؟ هل يمكن فعلاً أن نظل محتفظين بالسلمية واللاعنف حال اشتركنا في أنشطة ثورية؟ وكيف نضع الحد الفاصل بين الدفاع عن مبادئ العدل والكرامة والحرية وبين الخلط بين الدين والسياسة؟ وسنسعى للتعامل مع هذه الأسئلة من خلال هذا المقال.

المسيح رمز ثوري

«رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ، وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ، ١٩وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ». (لوقا ٤: ١٨، ١٩)

القس هوارد ثورمان، هو راعي معمداني أمريكي من أصل أفريقي، وقد أثر تأثيراً كبيراً في التكوين الفكري والروحي للدكتور القس مارتن لوثر كينج زعيم حركة الحقوق المدنية للسود في أمريكا. له مداخلة هامة في هذا السياق:

«يسوع أعلن الأخبار السارة أن كلاب المطاردة الثلاث الخارجة من الجحيم: الخوف والنفاق والكراهية، الكلاب التي تتعقب مسيرة المحرومين في كل جيل، ليس لها سلطان على الذين يقبلون أخباره المفرحة هذه. في مواجهة عدوانية العالم اليوناني – الروماني صار يسوع لنفسه ولشعبه كلمة وعمل الفداء لكل المنبوذين في كل جيل وعصر. المسيحية التي ولدت في ذهن هذا المعلم والمفكر اليهودي تتجلى كتكنيك يتيح للمقموعين البقاء والحياة في مواجهة القمع، وهذا التكنيك هو واقع أولى خام. لقد صارت المسيحية في سنوات لاحقة ديانة للسادة ولذوي السلطة، لكن هذا لا ينبغي أن يجعلنا نظن أنها كانت كذلك في زمن يسوع أو في حياته: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس».

لازال المقهورون يستجمعون شجاعة طازجة كلما تجلت هذه الحقيقة الأولية بصورتها الخام أمامهم. ما نصارع معه في بلادنا هو إظهار التدين من واقع سلسلة محددة من الأوامر والنواهي تطول أو تقصر. وتطول خاصة في كل ما يتعلق بالمظهر الخارجي الأكثر قابلية للقياس السريع. يصير من الجائز «للمؤمن» ألا يبالي إطلاقاً بالظلم طالما المجتمع يقبل به. ويواجه الفقر بمجرد تقديم الإحسان إذا كانت مواجهة جذور الفقر تعرضه لأدنى خطر أو رفض من المجتمع. وللمؤمن أن يصرف جل وقته وحياته في اللهاث الاستهلاكي المعتاد ويعمل ليصير في النهاية مجرد ترس في آلة صماء، تنتج مزيداً من «الرفاهية «ومزيداً من «البؤس» ومزيداً من تدمير موارد الكوكب ومزيداً من التبلد وفقدان الحساسية في خضم اللهاث المحموم وراء بيتاً أكبر ومصيف أعظم وسيارة أحدث وهكذا دواليك.

عندما يكون مظهر «حضور الله» الوحيد المتاح للبشر هو الشرائع والقوانين، يصير الهوس بمزيد من تفاصيل هذه اللوائح والمحرمات والنواهي، يصير هو المنفذ المريض والبديل الواهي غير المشبع لعطش الإنسان لما هو إلهي. تصير الشريعة صنماً.

لكن المفجع أنه عندما تصير صورة يسوع نفسه، الصورة المرسومة أو تمثاله أو الصورة الذهنية الضيقة له، صورة شخص لا يبحث إلا عن هذه المظاهر ولا يهتم إلا بما يهتم أغلب الناس به ويكتفي بترديد أقوال بعينها أو ممارسة طقوس بعينها هي التعبير «الصحيح» عن العقيدة الصحيحة. وبالتالي تصير هذه الصورة ليسوع نقيض من هو يسوع فعلاً تصير هذه الصورة أيضاً صنماً يعوقنا عن استكشاف من هو الله في وجه يسوع المسيح. يغيب عنا معنى ظهور الله في يسوع ومعنى تجسده. يغيب معنى التساؤل عن كيف كانت حياة هذا النجار الذي تحول واعظاً متجولاً نموذجاً لحياة الإنسان وإعلاناً عن حياة الله في الإنسان. عندما تتجمد هذه الأسئلة في صياغات عقائدية صماء تردد اسم يسوع وتنكر قوة نوعية وجوده، نصير نحن أنفسنا بدون أن ندري غرباء عن مضمون رسالته وفحواها بل نصير غرباء عنه هو نفسه مهما رددنا اسمه.

المسيح والثورة

ش. د. إيهاب الخراط

قرأت وعلمت كثيراً عن المعاني السياسية والاجتماعية الواضحة للكلمات التي افتتح بها يسوع خدمته في الناصرة. يسوع أعلن أنه هو الممسوح لحمل أخبار سارة للفقراء، والاقتطاف من اشعياء لا يحتمل اللبس، المعنى الفقراء حقاً وحرفاً وليس فقط «المساكين بالروح»، وكذا العتق للمسلوبين من حريتهم، والحرية للمطحونين أو المنسحقين. نعم، يمكن أن نفهم الآيات بمدلولات نفسية وروحية أيضاً لكن لا يمكننا أن نزعم أننا نوقر كلمة الله ثم نتجاهل المعنى السياسي/ الاجتماعي الجلي لهذه الكلمات «الثورية».

أعظم لحظة شرحت فيها هذا الكلمات جاءت في عام ٢٠١١. كنت قد شاركت من اللحظة الأولى في ثورة ٢٥ يناير وبعد « موقعة الجمل» وسقوط شهداء كثيرين أخبرني شريكي في العيادة الدكتور نبيل القط، أن شباب الثورة ينظم صلاة للمسيحيين في ذكرى شهدائهم في الميدان – حيث صلى المسلمون الجمعة، ويصلون بانتظام ويجد الثوار من غير اللائق ألا يوجد مجال لصلاة المسيحيين. فقمت بعدة اتصالات أسفرت عن موافقة الصديق د.ق سامح موريس وقيادات الكنيسة على اشتراك فريق قصر الدوبارة بمعداتهم في الصلاة على أن ألقي أنا الكلمة. فخاطبت نحو ٦٠٠ ألف متظاهر في ميدان التحرير، أظن أن ١٠٠ ألف فقط تمكنوا من الاستماع بسبب بدائية مكبرات الصوت التي كنا نستخدمها. قلت لهم: إني آتي إليكم باسم شاب كان في مثل عمركم، حول الثلاثين سنة، لما خرج محتجاً على الظلم والطغيان والرياء والفساد، واسم هذا الشاب يسوع المسيح عيسى بن مريم، وفور ذكر اسم الرب ضج الميدان بهتاف مدو تحية لاسمه الكريم. ثم قرأت هذا الشاهد من إنجيل لوقا الإصحاح الرابع، وقلت لهم لقد سقط الشهداء من أجل الفقراء ومن أجل الذين صادر النظام الفاسد حريتهم وحرمهم من الوعي ومن أي خيار كريم وعادل. ثم طلبت منهم أن يدعو ورائي وقلت «أنتهر روح الخوف باسم المسيح من قلب مصر»، رددتها ٣ مرات وردد عشرات الآلاف ورائي. كانت هذه لحظة مجيدة. لكن الصراع مع روح الخوف في بلادنا لم يحسم حتى الآن ونحن نقترب من مرور عشر سنوات على ثورة «العيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية».

هل يليق بالمؤمن المسيحي أن ينخرط في العمل السياسي؟

اللحظة الحالية هي لحظة العمل السياسي طويل المدى، وبالرغم من التضييق على العمل السياسي يجب أن ندرك أنّ تطور وعي الشعب أو تدهوره مرهون بمدى انخراط نخبة مخلصة متفانية في عمل سياسي طويل المدى يرتكز على مبادئ الكرامة والحرية والعدالة وإنصاف الفقراء، لا على مصالح شخصية أو طائفية أو دينية ضيقة. التفسيرات اللاهوتية المتعددة الشائعة في الكنيسة اليوم تؤدي إلى انعكاسات واضحة على الموقف من السياسة وهي تتضمن:

١. التفسير الانعزالي: الكنيسة في هذا المنظور التفسيري تشبه فلك نوح والذين نالوا الخلاص يحتمون به والمياه هي متغيرات العالم الحاضر وهي نوع من أنواع الغواية التي على المؤمن ان يتجنبها. بما فيها العمل السياسي.

٢. التفسير الأصولي الرمزي: وهو يرى علامات نهاية الزمان في التغيرات السياسية وبينما يظن السامعون والمتعاطفون مع هذا التفسير انهم في انعزال عن السياسة، نجدهم يتخذون مواقف بدون وعي تصب عادة في أكثر المعسكرات السياسية رجعية وخطورة مثل تأييد عودة اليهود الى اسرائيل او تأييد الحرب النووية باعتبارها هرمجدون وفي الحالتين قد يفهم التفسير الرمزي في إطار بعض سابقي الألف سنة أو التدبيريين و يؤدي إلى تغذية مواقف سياسية واضحة و متشددة.

وهنا أتجاسر فأقول أنّ مؤيدي النظام السابق وقت الثورة ومؤيدو « الاستقرار» وجميع الذين يبررون ضرورة استمرار القمع والظلم وتجاهل حقوق الفقراء والمطحونين، استندوا الى أحد هذين التفسيرين واحياناً إلى كليهما.

٣. التفسير الاصلاحي: وكان مؤسسو الكنيسة المشيخية في مصر اصلاحيون تقدميون من الطراز الأول أسسوا مدارس البنات وحاربوا الرق ودافعوا عن حقوق الإنسان وقاوموا الاستعمار وسعوا للعدل الاجتماعي بصلابة واتساق مع النفس وبنوا ذلك على منظور مدرسة لاحقو الألف نسمة الذين اعتقدوا بأن الاصلاح السياسي واقامة نظم انسانية عادلة في الارض هي من مظاهر تغطية الأرض بمجد الرب كما تغطي المياه البحر (اشعياء ٢: ٢-٤) (اشعياء١١: ٦-٩) وأدى هذا الى اصطفاف حركة الاحياء الديني في امريكا القرن التاسع عشر (وكانت معظمها قائمة على أفكار لاهوتيّي نيو انجلند راجعGeorge Ladd) وراء الاصلاح

المسيح والثورة

ش. د. إيهاب الخراط

السياسي والاجتماعي.

هل الثورة خيار مسيحي؟

قال اللاهوتي المشيخي ورجل النهضات الإنجيلي الأشهر في القرن التاسع عشر شارلز جراندیسون فيني: «الثورة تصبح ضرورية بل وملزمة متى تطلبها وعي الشعب أو فضيلته أو متى فرضها جهل الشعل ورذائله. فعندما تفشل أحد أشكال أو أنظمة الحكم في تسديد الاحتياجات الضرورية للشعب فمن واجب الشعب أن يثور. في هذه الحالات يكون الاعتراض على الثورة محض عبث لأن صلاح الله ومحبته هو بصورة ما سبب هذه الثورة».

وقد طبق فيني هذا المبدأ لتبرير الثورة الأمريكية، وها أنا تلميذ فيني القديم أطبقه على الثورة المصرية والثورات العربية وأدعو القرّاء لفهم الشواهد التي بدأت بها هذه المقالة في ضوء هذه الكلمات. وأواصل اقتطاف التحليل العبقري وأترك للقرّاء أن يطبّقونه على واقعنا المصري والعربي يقول فيني بعد هذا:

«وعي وفضيلة أباءنا التطهريين (البيورتانيين) جعل النظام الملكي عبئًا لا لزوم له. وصار النظام الجمهوري ملائماً بل وضرورياً، وسمح الله لأولاده بقدر من الحرية كانوا مؤهلين لاستقباله».

وأقول أنّ وعي وفضيلةَ الشباب والشعب المحتشد في ميادين التحرير جعل عبء التوريث أو التمديد لا لزوم له. وسمح الله لأولاده بقدر من الحرية كانوا مؤهلين لاستقبالها، ثم اختتمُ المقتطف باستبصار شبه نبوي، يقول فيني رجل الله:

«استقرار مؤسساتنا كمؤسسات جمهورية فعلا، يعتمد على تقدم الوعي العام والفضيلة. إذا أخفق الوعي العام أو الفضيلة الخاصة أو الشعبية إلى مستوى يصبح فيه ضبط النفس مستحيلاً عملياً، فسنسقط مرة ثانية إلى الملكية المحددة أو المطلقة، أو إلى الاستبداد المدني أو العسكري ... وهذا متيقن بقدر ما هو متيقن أن الله يحكم العالم أو أن العلة تدور مع المعلول»

وهذا هو التحدي الوطني في بلادنا الآن. هل سيعود وعي الشعب إلى مستوى «عيش»، «حرية»، «كرامة إنسانية»، «عدالة اجتماعية». مستوى ميادين التحرير أم يستمر في الانحدار إلى مستويات طائفية ومخاوف وهواجس أنانية ضيقة وانتهازيات سياسية محدودة.

هل ستنتصر شعارات مخادعة مثل التي رفُعت قبل سقوط مبارك «عودوا إلى بيوتكم مصر تحتاج إلى سواعدكم» أو تخويفات مثل «الكنتاكي والأجندات والأجانب والأخوان ... إلخ». والتي تعيد إنتاج نفسها في مخاوف تقال الآن مثل «الوقيعة بين الجيش والشعب» و«الإرهابيون سيدمرون وسط البلد». دورنا الآن هو في إيجاد السبل كي تساهم منابرنا ويساهم خطابنا وقبلهما نوع وعينا في رفع وعي شعوبنا.

كيف سنتفادى الطائفية المسيحية أو الإنجيلية ونصل إلى وعي إنساني أرحب؟

في خصم نضال جبار من أجل تخليص أمتنا من الظلم والاقتصادي، سمعت خداماً دينيين كثيرين يقولون: «هذه مسائل اجتماعية، لا صلة حقيقية بينها وبين الإنجيل». ورأيت كنائساً كثيرة تلزم نفسها بديانة أخروية «لا تهتم إلا بالحياة الأخرى، وتقيم تمايزاً دخيلاً وغير كتابي بين الجسد والروح وبين ما هو مقدس وما هو دنيوي»، كما يقول مارتن لوثر كينج

تعلمنا ربما في وقت متأخر جداً أن الفعل لا ينبع من الفكر بل من الاستعداد لتحمل المسئولية ..... الصمت أمام الشر هو في حد ذاته شر. ولن يبرئنا الله. عدم الكلام هو كلام. وعدم الفعل فعل.

يقول ديتريش بونهوفر اللاهوتي الألماني الذي أعدم بسبب اشتراكه في محاولة لاغتيال هتلر أنّ: «المسيحية تقوم أو تسقط، وتنجح أو تفشل، بحسب قدرتها على اتخاذ موقف احتجاجي ثوري ضد العنف والعشوائية وزهو السلطة. بحسب قدرتها على الدفاع عن الضعفاء. والمسيحيون لا يقومون بما يكفي لإيضاح هذه النقاط المحورية في إيمانهم.

العالم المسيحي تأقلم بيسر شديد مع عبادة السلطة. على المسيحيين أن يقدموا «العثرات» للعالم ويصدمونه أكثر بكثير بما يفعلون الآن. عليهم أن يتخذوا موقفاً أكثر قوة لصالح الضعفاء بدلاً من مزيد من الاهتمام بالحفاظ على الحقوق « المحتملة» للأقوياء».

هل هناك توجه سياسي للمسيحية؟

المسيح وأنبياء العهد القديم ورسل العهد الجديد يدعوننا للدفاع عن العدل والسلام وعن الكرامة والإنصاف للمهمشين والمطحونين. ولكل منا أن يترجم هذه المبادئ إلى توجه سياسي. تستطيع اليوم أن تنطلق من هذه التوجهات فتدافع عن حرية السوق وضرورة النمو الرأسمالي كسبيل لتحقيق هذه المثل،

أو تدافع عن الاشتراكية وسيطرة المجتمع على أدوات الإنتاج أو حتى السعي للشيوعية. كما يمكنك أن ترى أن التوازن بين الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هو السبيل الوحيد التحقيق هذه التطلعات «الروحية». بدى جلياً الآن أنك لن تستطيع أن تدافع عن الرق، أو الفصل العنصري أو تفوق جنس عن جنس آخر وتظل تسمي نفسك مسيحياً، على أن هذا لم يكن واضحاً دائماً، من ٢٠٠ سنة مثلا.

لا ينبغي أن تدافع منابر كنائسنا عن توجهات اليمين أو اليسار أو الوسط وتزعم أن هذه هي «كلمة الرب». لكن ينبغي قطعاً أن نحث أنفسنا وشعبنا على حمل هموم الفقراء والمطحونين والدفاع عن كرامة البشر. أن نهتم بما هو أوسع من ضمان رفاهيتنا ومستقبل أولادنا.

السلمية السبيل الثوري لتغيير عالم اليوم

يتحرك الوعي الإنساني الثوري اليوم بوضوح نحو نبذ العنف. نحو المقاومة اللاعنفية. انتصر غاندي ولوثر كينج على قوى القمع العنيفة باستعدادهم للموت، وماتا كلاهما فعلا، بدون أن يرفعها السلاح. في مناطق أوسع وبلاد أكثر من العالم لم يعد «العنيفون يغتصبون» السلطة السياسية بل صار الواقع يتحرك أكثر فأكثر في اتجاه أن «الودعاء يرثون الأرض». ونختم بكلمات ثورية من دوروثي سول، التي درست لاهوت التحرير من منصة كلية لاهوت يونيون بنيويورك :

« أؤمن بالله
الذي لم يخلق عالماً لا يتغير
شيئاً عاجزاً عن التغير؛
الذي لا يحكم وفقاً لقوانينٍ أزلية
تظلُّ غير منتهكة،
ولا يحكم بحسب نظام طبيعي [يقسم بين]
الأغنياء والفقراء
الخبراء والجهلة
الحكّام والخاضعين؛
أومن بالله
الذي شاء أن يكون في الحياة صراعاً
وشاء أن يغير الوضع القائم المستتب
يغيره من خلال عملنا
يغيره من خلال سياساتنا